نظام الحكم في الشريعة والتاريخ

تأليف الأستاذ ظافر القاسمي

الجزء الأول : بيروت (دار النفائس) الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

الدكتور شكري فيصل

هذا الكتاب يبدو حديث عهد بالصدور ، ولكن من المؤكد أن صاحبه عانى قضاياه ومسائله التي توزعت أبوابه وفصوله معاناة طويلة ، وقد تكون معاناة قاسية في بعض الأحيـــان .. وذلك منذ أخذ يدرس مادة الثقافة الإسلامية في الجامعة اللبنانية في بيروت . ومامن شك في أن صلته بهذه الموضوعات ترتدّ إلى وراء ، إلى بعيد منذ كان يستمع إلى والده العلامة الشـيخ جمال الدين القاسمي ، ومنذ كان يغشى بعض الحلقات والمسـاجد يصحب أهله أو يصحبه أهله .. ثم فيما كان بعد ذلك من دراسته للحقوق ومرافعاته في القضـاء وعمله في فروع الثقافة العربية من خلال « مكتب النشر العربي » الذي أقـامه مع صديقيه الأستاذين داود التكريتي وعصام الانجليزي ، وكأنهم كانوا يريدون أن يكون - أو هكذا تمثلت أنا الأمور - شيئاً يشبه لجنة التأليف والترجمة والنشر والذي أخرج عديداً من كتب التراث منها البخلاء للجاحظ ومنها المنقذ من الضلال للغزالي ؛ ثم صُرِف أصحـابه عن ذلك إلى مهنتهم التي شغلتهم عن متابعة النشـر والتحقيق إلى شؤون أخرى من شؤون الحياة والسياسة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كـــر المؤلف كتابه على مقدمة وعلى تسعة أبواب ، وطالت بعض الأبواب فتوزعت إلى عديد من الفصول ، وقد عقد الباب الأول حـــول موضوع : العرب قبل الإسلام وذلك حين رأى أنه « لا بد لفهم نظـام الحكم في الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي من التمهيد ببحث قصير ، في حدود المختصر الوافي ، عن الفترة التي كانت قبيل الإسـلام والتي عرفت بالجاهلية » (ص ٧) .

وجعل الباب الثاني عن « سـياسة الإسلام » والثالث عن (هجرة الرسول) والرابع عن « حكومة الرسول » تحدث فيه عن ثلاثة أشياء عن الشؤون الداخلية وعن الشؤون الخارجية وعن الشؤون العسكرية .

أما الباب الخامس فعنوانه قواعد الحكم ، وقسمه إلى سبعة فصول الأول عن الحرية في الإسلام ، والثاني عن الشورى ، والثالث عن المساواة ، والرابع عن العدل ، والخامس عن المعارضة ، والسادس عن النقد النهائي أو محاسبة النفس .

وأما الباب السادس فقد قصره على موضوع الخلافة . ولأن موضوع الخلافة يؤلف صلب نظام الحكم فقد اضطر المؤلف أن يجعله في تسعة عشر فصلاً تناولت البيعة والعهد ، وأهل الشورى وأهل الحل والعقد ، والنظريات المختلفة حول البيعـة وما إلى ذلك . وقد شمل هذا الباب وحده نحواً من ثلث الكتاب .

وفي الباب السابع تحدث عن الوزارة وجعل ذلك في عشرة أبواب بعضها يدور مع التاريخ (الأموي والعباسي والأندلسي) وبعضها يدور على الوزارة في كتب السياسة الشرعية ، وبعضها يتوقف عند ارتباط مابين الوزراء والخلفاء والملوك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما الباب الثامن فموضوعه الولاية ، وهو في سبعة فصول ، وأما الباب التاسع فموضوعه الإمارة ، وهو في ثمانية فصول .

وقد اقتصرت فيما قدمت على عناوين الأبواب دون العناوين الكثيرة للفصول لأن القارىء يستطيع أن يلمح سعة آفاق الكتاب وغزارة مباحثه ودقة موضوعاتها حيناً وتشعبها حيناً آخر . . الأمر الذي يجعل الإقدام على التأليف في مثل هذه الأشياء يقتضي كثيراً من الجهد وكثيراً من البحث الدائب عبر عدد كبير من المؤلفات التي تناولت هذه الموضوعات في القديم أولاً ثم في الحديث بعد ذلك .

وفي تقديري أن البحث في مثل هذه الموضوعات الخطيرة في تاريخ الحياة العربية وفي تاريخ الفكر العربي ، وفي سير الحضارة الإسلامية بالشعوب التي صنعت هذه الحضارة ، لابدّ فيه من زاد كبير ولا بد فيه من ثقافة متنوعة عميقة حتى يستطيع الذي يخوض فيها أن يقدّم عملاً مذكوراً ذا بال .

وأحسب أن هنالك حاجة إلى هذه الأنواع الأربعة من الثقافة في معالجة نظام الحكم في الشريعة الإسلامية وفي التاريخ :

ثقافة شرعية تصل صاحبها بالعدد الكبير من كتب الفقه والتراث ، وتقدم له المادة الأولية لهذا البحث ووجهات النظر المتباينة للفرق المختلفة فيه .

وثقافة قانونية معاصرة تستطيع أن تنظر في التراث نظرة أكثر نفاذاً وعمقاً ، وقدرة على جلاء مافي التراث وحسن اكتناهه ، وتساعد على بعض الموازنات والمقارنات .

وثقافة سياسية ، أو قل حس سياسي دقيق منطلق من ممارسة السياسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو من تتبُّع مساربها يساعد على فهـم الأحداث التي كانت وراء الأنظار والمبادىء الفقهية والخلافات المذهبية .

وثقافة تاريخية تتعمق الأرضية التي نشأت منها والتي نشأت عنها الأحداث والمذاهب ونبتت منها الأنظمة والقواعد ..

هذا ونحن لانتطلب أن تجتمع أقدار متساوية من الثقافات جميعاً عند مؤلف واحد ، ولكن من المؤكد أنها اجتمعت على نحو متوازن وسليم عند الأستاذ القاسمي ، وكان اجتماعها هذا هو الذي أنبط هذا الكتاب عنده .

ولست أتحدث عن سلامة اللغة وصحة الأداء واستواء التركيب ووضوح التعبير فتلك أمـور أساسية لاغنى عنها. وقد توفرت للأستاذ المؤلف على هذا النحو الواضح .

ونستطيع أن نتبين نهج الكتاب من خلال هذه المقاطع التي جاءت في مقدمة المؤلف :

(ويهمني أن أسجل في هذه الكلمة تقديري لكل من سبقني من المؤلفين العـرب والأجانب في هذا الموضوع الحضاري الهام ، فقد قرأت كتبهم ، وانتفعت ببعض ماجاء فيها ، وعرفت مبلغ ماعانوا من السهر والجهد في البحث والدرس والتنسيق والتعريب .

ثم حاولت أن أضيف إلى ماصنعوا بعض مافاتهم ، سواء من حيث الموضوع أو من حيث الشكل ، وربما خالفتهم في بعض ماذهبوا إليه ، فذلك من طبيعة حرية الفكر في البحث العلمي .

ولقد حرصت على إيراد أكثر النصوص بحروفها كما وقعت عليها ، متوخياً تمرين طلابنا في الجامعات على معالجتها وتدبرها ، واكتساب الملكة الأدبية وملكة التأليف من روحها ومتنها وألفاظها ومعانيها) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويتميز هذا المنهج ، من نحو خلقي ، بالوفاء ... الوفاء للذين كتبوا أو ألفوا في هذا الموضوع من قبل ، وهو خلق أضحى عند كثيرين خلقاً نادرا : فهم ينقلون الصفحات من مصادرهم ، ويتعرفون من خلال كتاب أو بحث إلى المشكلة ، ثم يتجاوزون الوقفة عند الكتاب الذي دلهم ، بله الإشارة إليه عندما يتحدثون عن المشكلة .. ولست أشير إلى ماوراء ذلك مما يجترحون ، فأنا لا أتحدث عن عمليات السطو ، ولكني أتحدث عن عمليات التأليف .

كما يتميز هذا المنهج من نحو علمي بالاستناد إلى النصوص والتعرّف إليها ، والوقوف الطويل عندها ، ثم الانطلاق منها .

وقد غبرت سنوات على عديد من أساتذة الجامعة في دمشق وهم يصرّون على هذا الأسلوب يأخذون به أنفسهم أولاً ، ثم يأخذون به طلابهم بعد ذلك .. ويأخذونهم بشيء من الشدة ، أوقل من الحرص حتى لايكون التعليم الجامعي تلقيناً من التلقين ، أملية تلقى ، أو كتابا يضع الأفكار والنظرات في صفحات محدودة ، ويسكت عن العمل الجامعي الصحيح الذي يقوم بالنصوص ولايقوم إلا بالنصوص : تمرساً بها ، ودراسة لها ، وابتداء منها ، وانتهاء اليها .

والميزة الثالثة هي محاولة المؤلف أن يضيف شيئاً على الذين تقدموه .. وقد تكون هذه الإضافة موافقة وقد تكون مخالفة ... قد تكون إنكاراً وقد تكون رضى .. ولكنها أياً كانت فإنها يجب أن تكون مدعومة بالدليل ومايسبق الدليل من حوار ونقاش .

والحق أننا نواجه في التأليف المعاصر أسلوبين أو نمطين يسودان حركة التأليف أحدهما : هذا النوع من التأليف الذي يقارب المعنى اللغوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للفظة .. ككلّ عمل يؤلف بين الأشياء التي يقع عليها ، يتعرف لها ويناقشها وينسقها ويبوبها .. إنه يقرأ المصادر والمراجع المختلفة المتعددة ثم يؤلف بين ماانتهى إليه من هذه المصادر ويخرجه بعد تنسيق وتبويب .

وهذا النمط من التأليف لايخرج عن أن يكون في جملته عرضاً جديداً لمعلومات سابقة ، في شيء من اختصار أو تطويل ، وفي وقفة هنا أو وقفة هناك ... فهو لا يقدّم عملاً جديداً مبدعاً ولكنه يقدم عملاً مجموعاً على نحو جديد .

وقد لايبدو مثل هذا النمط مقنعاً .. ولكن حين نعرف كيف تتشعب الأبحاث في تراثنا وكيف كانت تكتب .. فإننا مضطرون إلى تقدير مثل هذه المؤلفات على غياب الجديد المبدع منها .

والنمط الآخر هو الذي يحاول أن ينظر فيما تقدمه له المصادر نظراً خاصاً ، هو أعمق من الجمع .. إنه يمحّصه ويدققه ويفهمه فهماً جديداً ، ويقيم هذا التفاعل بينه وبين ثقافته المعاصرة ويزاوج بين المفاهيم القديمة والحديثة .

ونحن مع الأستاذ القاسمي في هذا المؤلّف نواجه هذين النمطين من التأليف .. هو في أقل المرات يقتصر على العرض ، وهو في أكثرها يضيف إلى المادة المنسقة المبوبة رأياً يراه أو موقفاً يقفه أو مقارنة يعقدها أو مناقشة يديرها (انظر في ص ٢٢٩ رأيه في صنيع عمر (رض) حين جعل لأهل الشورى حق انتخاب الخليفة) .

وقد يكون في بعض مواقفه ، أو في بعض نقاشه ، مأخوذاً بشيء من الحماس ، إلى حين يحتاج الموقف إلى قدر أكبر من الأناة أو إلى قدر أكبر من امتحان النصوص (انظر ما وصف به معاوية (رض) في ص ٢٨٥ والنقل الذي نقله عن السيوطي في كتاب تاريخ الخلفاء) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net